بقايا الفصام

تتصرّف العامة في طوائف من الألفاظ الفصيحة تصرفاً عجيباً، فإمّا أن تنقل معانيها عن الحقيقة إلّى المجاز وإمّا أن تحوّل هذه المعاني عن وجهها الشريف إلى وجهٍ دنيء، ثم نراها في كثير من الأحيان تحافظ على معاني بعض التراكيب فلا تختلف هذه المعاني عمّا كانت عليه قبل ألف سنةٍ، وقد نجدها تطلق أسماءً فصيحة على بعض المسميات إلا أن هذه المسمّيات لا تلبث أن تذهب فتموت الأسماء بذهابها أو تكاد.

فمن الألفاظ التي حولت العامة معانيها من وجهٍ إلى وجهٍ لفظة: الشبرقة، لقد عاشت هذه اللفظة في لغتنا العامّة في دمشق حتى يومنا هذا، ولكنها لم تعش على أصل معناها فقد تصرفت العامة في هذا المعنى بعض التصرف فمن معاني الشبرقة في اللغة الفصيحة: نهش البازي الصيد وتمزيقه وقطع الثوب... أما الشبرقة في لغتنا العامة فلها معنى آخر، فالشبرقة أن يشتري الولد من ههنا وههنا على سبيل التسلية، فالأهل يدفعون إلى ولدهم يسيراً من المال ويقولون له اذهب إلى السوق وتشبرق، أي اذهب واشتر ما يروقك من مأكول أو مشروب، اذهب وأنفق ما أعطيناك، فأي صلة بين معنى هذه اللفظة الفصيح وبين معناها العامي؟ أي صلةٍ، بين نهش البازي صيده وتمزيقه وبين شراء الولد ما يمرُّ به في السوق؟ لا نجد في الظاهر شيئاً من هذه الصلة، ولكن إذا اجتهدنا في الأمر بعض الاجتهاد اهتدينا إلى ظلّ من

الصلة على سبيل المجاز، فكما ينهش البازي صيده ويمزقه حتى لا يبقى من هذا الصيد أثر فكذلك ينفق الولد ما دفعه إليه أهله من المال في شراء كذا وكذا حتى لا يبقى من هذا المال شيء، فكما أن البازي نهش صيده فكذلك الولد نهش ماله أي صرفه كله. هذا تعليل قد نصيب فيه أو نخطئ وكلنا نقبله على ظاهره حتى نهتدي إلى تعليل أقوى. ومن هذا القبيل لفظة: النّشال الشائعة على ألسن أهل مصر ومعناها: السارق فالنشال في اللغة الفصيحة كشداد من يأخذ حرف الجردقة، وهي الرغيف، فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه. ومن معاني: نشل الشيء أسرع نزعه، من هذا يتبين لنا أن النّشال العامية أصلها فصيح ولكن العامة تصرفت في معناها فنقلت هذا المعنى من وجه إلى وجهٍ على سبيل المجاز، فكما أن من ينشل الشيء يسرع نزعه فكذلك من ينشل الشيء من الثياب يسرع نزعه بحيث لا تقع عليه عين صاحبه، وكما أن النشال الفصيحة من يأخذ حرف الرغيف فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه فكذلك النشال العامية من يأخذ الشيء من ثياب صاحبه فيغمسه في جيبه، يستأثر به، فالمعنيان الفصيح والعامي متقاربان ولكن هذا التقارب على سبيل المجاز.

ومن هذا النمط، وإن كان الأمر يختلف بعض الاختلاف لفظة الشعوذة، فقد اتسعت العامة في معنى هذه المادة وفسحت لآفاقها، فالشعوذة في اللغة خفّة في اليد وأخذ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين وهو: مشعوذ ومشعوَذ، (بكسر الواو وفتحها)، إلا أن العامة اختارت كسر الواو ولم تكتف بأصل معنى هذه المادة فقد وسعت آفاقه ونقلته من معنى ضيق إلى معنى أرحب، فلجأت إلى المجاز وأطلقت الشعوذة على كل نوع من أنواع الخفة والسحر في

السياسة أو العلم أو الدين ونظائر هذه الأمور، فلم تبق الشعوذة في لغة العامة والخاصة خفة ليد أو أخذاً كالسحر ولكنها أصبحت خفة في كثير من الأمور، فهي خفة في ستر حقائق الأشياء، المشعوذ يرينا السياسة بغير ما عليه أصلها في رأي العقل وكذلك يرينا العلم أو الدين أو ما شابه ذلك، وإذا كان المشعوذ قد يطول أَمر شعوذته في خفّة يده أو سحره فإن المشعوذ في أمور السياسة أو الدين أو العلم قد يُفضح أَمره في هذه الخفة وفي هذا السحر فينكشف باطنه وتعرف شعوذته، وما أَظن أن لفظاً من الألفاظ أقوى من لفظ الشعوذة في الدلالة على هذه الطبقة من الناس.

بقيت لفظة لا تحتاج إلى كثير من التعليل، فهي عامية ولكن أَصلها فصيح، نقول في لغتنا العامة: فلان ذلق.. أَو فلان ذلق لسانه... ونحن نريد بقولنا هذا أن فلاناً كان يكتم عنا أشياء ولا يريد أَن يبوح بها إلا أنها في خلال حديثه قد تخونه الذاكرة فيبوح بما كان يكتمه فنقول: فلان ذلق فقال كذا وكذا.. وقد تعدّي العامة هذه المادّة وتستعمل الفعل المشدّد فتقول: ذلّقه حتى قال كذا وكذا.. ماذا نجد في اللغة، إنّا نجد: ذلق اللسان كفرح ذرب فهو ذلق وأذلق.. وذلق اللسان كنصر وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح إلى آخر ما جاء من مشتقات هذا الفعل، فاللسان الذليق هو اللسان الحديد، البليغ، ثم نجد معنى أَذلقه: أقلقه وأضعفه، ولا نريد التوسع أكثر من ذلك في معاني هذه المادة، فالقول العامي: ذلق فلان فقال كذا وكذا.. لا يطابق القول الفصيح: ذلق اللسان فهو ذليق بمعنى بليغ ولكن قول العامّة: ذلّقه فقال كذا وكذا... لا يبعد كثيراً عن أَذلقه بمعنى: أقلقه وأَضعفه فقد يأتي بعد هذا الإِقلاق أو هذا الإِضعاف حمل الإنسان عل البوح بما يكتم ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني

في الكلام على وقعة بدر، فقد قبض على غلامين اعترفا بأنهما ساقيين لقريش ولكن القوم رجوا أن يكون الغلامان لأبي سفيان فضربوهما، فلمّا أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان إلى آخر ما جاء في هذا الخبر، فالذي يهمنا منه إنما هو فعل: أذلقوهما وما أدّى إليه هذا الإذلاق أي هذا الإقلاق والإضعاف، فقد أدّى إلى الاعتراف بما يرضي الذين ضربوا الغلامين، وإن كانت بقية الخبر تدل على أن الغلامين كانا صادقين فهما لقريش وليسا لأبي سفيان.

فإذا رجعنا إلى قول العامّة: ذلّقه فقال كذا وكذا... وجدنا شيئاً من التقارب بين القول العامي والقول الفصيح، والفرق بينهما أن العامّة تستعمل: ذلّقة بالتشديد، واللغة الفصيحة تستعمل: أذلقه، ومهما يكن من الأمر فإن الإذلاق أو التذليق إنما نتيجته البوح بما هو مكتوم سواء أوقع الإقلاق والإضعاف أم لم يقع.

وإذا انتقلنا من هذه الطبقة من الألفاظ إلى طبقة ثانية وجدنا أن العامّة قد تتصرف في بعض المعاني أقبح تصرّف، فمن الألفاظ الفصيحة لفظة: العِلق، (بكسر العين وتسكين اللام)، ومعناها في اللغة: النفيس من كل شيء، والجمع: أعلاق وعلوق، إلاّ أن هذه اللفظة لم يبق لها في لغة العامّة معناها الفصيح، فقد تصرفت فيها أسوأ تصرف فأطلقت العلق على كل مخنث أو متغنِّج من الناس، وهي تريد به أقبح الذم، ولا يسر أحداً أن يقال فيه إنه علق، واختارت العامة من صيغة الجمع: العلوق وطرحت الأعلاق في لغتها، فإذا قالت في جماعة من القوم إنهم علوق فقد بلغت من قبح تصويرهم في المجتمع كلّ مبلغ، وهكذا نجد أن بعض الألفاظ الفصيحة قد تنحدر في لغة العامّة من أفقها الأعلى إلى الأفق الأدنى.

وإذا كانت العامّة قد تتصرّف في بعض الأوقات في معاني فئةٍ من الألفاظ فإنها قد تحافظ في كثيرٍ من الأحيان على معاني تراكيب فصيحة استعملت في قديم أدبنا، من هذه التراكيب: فلان يدي ورِجلي.. الكلام معك ضائع.. يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين.

نجد في الأَغاني في أخبار منصور النمري هذه العبارة: استقبلت منصوراً النمري يوماً من الأيام فرأيته مغموماً، واجماً، كئيباً فقلت له: ما خبرك؟ فقال: تركت امرأتي تطلق وقد عسر عليها ولادها، وهي يدي ورجلي والقيمة بأمري وأمر منزلي.. فهذه العبارة: فلان يدي ورجلي لا تزال مستفيضة في لغة العامّة، وقوتها ظاهرة ومعناها جزل، فالذي يكون يدك ورجلك في أمورك إنما هو المعوّل عليه في هذه الأمور، لا تستطيع أن تعمل عملاً دونه، وهل يستطيع أن يتحرّك من لا يد له ولا رجل؟ وهكذا نجد أَن التراكيب السهلة ذات المعنى الخصب قد تعيش دهراً طويلاً في لغة العامّة فضلاً عن لغة الخاصة.

ومثل هذا التركيب في القوة قولنا : الكلام معك ضائع.. في أَخبار حمّاد الراوية في الأَغاني أن الطرِمَّاح أنشده قصيدة في مسجد الكوفة، فلمّا سمعها حمّاد ادّعاها ونفاها عن الطرمّاح، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمَاح لحمّاد: أنت رجل ماجن، والكلام معك ضائع.

قد يشتد النزاع بين رجلين وقد يكون أحدهما على حقٍ فيحاول أن يقنع الآخر بالحجة، أو أن يوبّخه إن كان يستلزم التوبيخ أو أن يدخل على ذهنه فكراً من الأَفكار فيجده كأنه حائط، لا يقنع ولا يلين ولا يأخذ بالصواب، فتنفد حيلته معه فلا يهتدي إلى سبيل من السبل في ردّه إلى الصواب، فلا يجد في مثل هذه الحال أبلغ من قوله: الكلام معك

ضائع.. فلا الحجة تنفع ولا التوبيخ يفيد ولا المنطق ينجح، فكل أمرٍ من هذه الأمور ونظرائها لا طائل فيه فالكلام مع هذا الرجل ضائع، فهذه العبارة تغني عن كل حجة وعن كل توبيخ وعن كل منطق فضلاً عن أنها تجنّبنا كل عاقبة غير محمودة، فما أحسن شيوعها على ألسن العامّة والخاصة حتى يومنا هذا!

أمّا التركيب الأخير:

فلان يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين فلا تقلّ قوته على أخويه، نقرأ في الأغاني في نسب أبي العتاهية وأخباره أن أبا العتاهية لما نسك جلس يحجم اليتامى والفقراء ليضع من نفسه وليكتسب الثواب وهو لا يعرف ما يحتاج إليه كل واحد من الناس إلى أن يخرجه من الدم على قدر طبعه ممّا إذا زاد فيه أو نقص منه ضرّ المحجوم، فقال بشر لأبي العتاهية: ما أراك إلاَّ أردت أَن تتعلّم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين!

هذه العبارة شائعة على ألَسن الناس، عامّتهم وخاصّتهم، إلا أنهم يستعملون الرؤوس بدلاً من الأَقفاء، فقد يتطاول أحدنا لأمر من الأمور ولم يأخذ لهذا الأَمر عدّته ولا هيّأ له أَسبابه ولا عرف مصادره وموارده، ومع هذا فهو يدّعي العلم بهذا الأَمر فيمارسه على جهله به والله أَعلم بما يتمُّ فيه على يده من الأَذى، ولكنه يريد أن يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى!

ولا أريد ان أختم هذا المقال دون الإِشارة إلى لفظة قد تدلّنا على موت الألفاظ، فإن للألفاظ حياة، إن لها ميلاداً وموتاً، من الألفاظ الشائعة في بنياننا لفظة: المشرقة، فالمشرقة، مثلثة الراء،موضع القعود في الشمس بالشتاء، وقد حافظت العامّة على هذا المعنى في لغتها، فلم

تنحرف هذه اللفظ عن معناها الفصيح، وإذا كانت المشرقة مثلثة الراء فإن العامّة اختارت فتح الراء في كلامها، إلاَّ أن هذه اللفظة التي عاشت في دمشق زمناً طويلاً قد أوشكت أن تموت والسبب في ذلك عمراننا الحديث، فالدور القديمة لها مشرقات، وكان أهل هذه الدور يقعدون فيها بالشتاء للدفء أو ينشرون فيها غسيلهم، فهي من أصل الدور وهي غير سطوح الدور، ولكن عمراننا الحديث قد خلا من هذه المشرقات فأكثر الأبنية أصبحت ذات طيقان وكلّ طاقٍ خالٍ من المشرقة ما خلا الطاق الأعلى فإن له سطحاً فأهله يقولون: السطح ولا يقولون: المشرقة، وعلى هذا نجد أن هذه اللفظة التي لا تزال تعيش في حارات دمشق القديمة قد ماتت في الحارات التي استفحل فيها العمران الحديث.

مجلة المجمع العربي
بدمشق

بقايا الفصام

من ثلاث سنين[1] وضحت في هذه المجلة ما أريد ببقايا الفصاح وأشرت إلى منزلة هذه البقايا في الأدب فقد كنت انتخبت طائفة من الألفاظ تدل على أمور اجتماعية أو اقتصادية أو مادية أو نفسية مستفيضة في العامة في دمشق وأصلها فصيح، وفي مقالي هذا أنتخب طائفة من التراكيب خلفها لنا الماضي وهي لا تزال شائعة في دمشق، فهل يأتي يوم يستطيع فيه العرب أن يصلوا آخر لغتهم بأولها العامة والخاصة، فأي لذة أعظم من أن نعرف اللغة التي كانت العرب تتكلم بها في المجالس من ألف سنة أو أكثر.

فضَّل أبو منصور الثعالبي في عصره شعراء الشام على شعراء سائر البلدان، فكان في رأيه شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء وعرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام، والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ومداخلتهم إياهم، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة رزقوا ملوكاً من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب.

---

(١) الجزء الثالث والرابع من المجلد السابع عشر.

هذا رأي الثعالبي في فصاحة شعراء عرب الشام من ألف سنة بوجه التقريب، وإنما موضوعي في هذا المقال فصاحة العامة في دمشق فقد بقيت فيهم من أيام الثعالبي ومن الأيام التي جاءت قبل الثعالبي مفردات وتراكيب تجري بها ألسنتهم في يومنا هذا وهي فصيحة يستعملونها على نحو استعمالها من ألف سنة مع يسير من التعديل، ولقد ضاع من تأريخنا شيء كثير فلسنا نعرف صور المشهورين من رجالنا أو طراز ملابسهم، وذهب عنا كثير من عاداتهم واجتماعاتهم وهذه ثلمة في تأريخنا وكأن الله تعالى عوَّضنا من هذا كله أمراً آخر، فليس بقليل أن نسمع في عصرنا هذا في العامة مفردات وتراكيب جرت بها ألسن الناس من ألف سنة، ولو سلمت ألسنتا في خلال هذه الألف سنة من الفساد الناشئ عن مخالطة الأعاجم لكانت لغتنا العامة في عصرنا قريبة من لغة الأدب، فما كنا نشعر بتباعد اللغتين، على أن هذا التباعد قد يزول أثره بعض الشيء في مستقبل الأيام بفضل أمور كثيرة كالجرائد والمجلات والمدارس ودور الإذاعة وأمثالها، وإذا وازنا بين لغتنا العامة في هذا اليوم وبين لغتنا العامة من نصف قرن فإنا ندرك الفرق العظيم بينهما، فلا شك في أن العربية العامة تقرب كل يوم من لغة الأدب.

ليس بقليل أن نعيش في يومنا هذا مع العرب الذين حدَّثنا عنهم أبو منصور الثعالبي فنستعمل في بعض أحاديثنا لغتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وكناياتهم ومجازاتهم ونحو هذا كله فنشاركهم في تفكيرهم وحسهم وشعورهم حتى كأنا خلقنا في عصر واحد وأظلتنا سماء واحدة وجمعتنا تربة واحدة!

أرى قبل أن أذكر قليلاً من التراكيب التي أشرت إليها في صدر المقال أن أذكر مادتين مفردتين.

من قول العامة في دمشق: من أين حوَّشتهم، وقد جاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري في الكلام على أمر الشورى وبيعة عثمان ما يلي:

لما دفن عمر أمسك أصحاب الشورى وأبو طلحة يومهم فلم يحدثوا شيئاً فلما أصبحوا جعل أبو طلحة يحوشهم للمناظرة في دار المال...

فالتحويش في اللغة التجميع، فالمادة العامية في دمشق حافظت على أصلها الفصيح المحافظة كلها، إلا أنها على الرغم من هذه المحافظة قد أصبح لها صباغ خاص فإنا إذا قلنا في دمشق: من أين حوَّشتهم، رجعنا بالضمير في حوَّشتهم إلى جماعة قد يستنكر شيء من أخلاقهم أو طبائعهم وهذا الاستنكار غير وارد في عبارة البلاذري؛ لأن الذين حوشهم أبو طحة للمناظرة في دار المال هم سادة الناس فيهم: علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وهم المهاجرون الأولون.

وقد تستعمل مادة التحويش في لغتنا العامة بمعنى القطف فنقول: حوَّشنا العنب أي قطفناه، وحوَّشنا المشمش أي جنيناه، والمعنى يدل على التجميع، فهذه المادة حافظت على معناها الأول إلا أنها طبعت بطابع خاص في عصرنا هذا فهي تتضمن الدلالة على شيء من الاستنكار.

ومن قولنا في دمشق: فلان لا بِدّ في هذه الأيام، أي لا يتحرك إذا كان من أصحاب الحركات ولا يتكلم إذا كان من أرباب الكلام ولا يقدم على أمر إذا كان من أهل الإقدام، وفي اللغة: لبد لبوداً ولبداً أقام ولزق، ولبد ككتف من لا يبرح منزله ولا يطلب معاشاً، فالمعنيان الفصيح والعامي أصلهما واحد، قد وردت هذه المادة في عبارة في كتاب أنساب

الأشراف في أمر عبد الله بن الزبير قال أبو برزة الأسلمي: إنكم معشر العرب كنتم على الحال التي علمتم من القلة والذلة والضلالة وإن الله رفعكم بالإسلام وبمحمد عليه السلام حتى بلغتم ما ترون وإن هذه الدنيا قد أفسدت ما بينكم، أما الذي بالشام، يعني مروان، فإنما يقاتل عن الدنيا، وكذلك الذي بمكة، يعني ابن الزبير، وما يقاتل الذين تدعونهم قراءكم إلاَّ على الدنيا، وما نرى خير الناس إلا عصابة لابدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم.

فاللبود في هذا المقام معناه مجرَّد الإقامة والعامة في دمشق جعلت لهذه المادة على تطاول الأحقاب معنى أخصب، فاللبود في كلامها فيه شيء من عدم الحركة والكلام وفيه شيء من الحذر والخوف وأمثال هذه الخصائص.

والآن أنتقل إلى ذكر قليل من التراكيب فيها شيء من آثار اللغة الشعرية تجري بها ألسن العامة في دمشق، فمن قول العامة، لا بل من قول النساء خاصة: فلانة فكت الحزن.. وذلك إذا مات زوجها أو أحد من أهلها فحدَّت ثم انقضت مدَّة الحداد فعادت إلى الزينة،فإذا فكت الحزن استطاعت أن تخرج من الدار وأن تدخل الحمام أو تحضر مجلس غناء وغير ذلك. وقد جاء في كتاب ألف ليلة وليلة، في الليلة السادسة والثلاثين بعد الأربعمائة مايلي: ولم يزالوا به حتى دخل الحمام ودخلوا عليه وفكوا حزنه.

فلا يزال هذا التركيب في عصرنا في قوته على نحو ما كان عليه في عصر ألف ليلة وليلة.

وقد تكثر الاستعارات والتشبيهات والمجازات في لغتنا العامة فإذا أردنا أن نشبه أحداً جميلاً بشيء قلنا: فلان مثل الصورة، وقد جاء في

الأغاني في أخبار الحكم بن عبدل ونسبه ما يلي : اقترض ابن عبدل مالاً من التجار وحلف لهم بالطلاق ثلاثاً أن يقضيهم المال عند طلوع الهلال فلما بقي من الشهر يومان قال أبياتاً من جملتها هذا البيت:

وفقد بيضاء غادة كملت كأنها صورة من الصور!

فكأن ابن عبدل لا يزال في عصرنا هذا يسمع آثار لغته الشعرية في دمشق. وكثيراً ما تستعمل العامة إذا أراد أحدهم أن يقول للآخر: انظر إلى كذا... هذا التركيب: اضرب عينيك، أي: انظر... وقد قال صاحب الأغاني في أخبار محمد بن بشير ونسبه: كانت هند بنت أبي عبيدة عند عبد الله بن حسن فلما مات أبوها جزعت عليه جزعاً شديداً ووجدت وجداً عظيماً فكلم عبد الله بن حسن محمد بن بشر الخارجي أن يدخل إليها ويعزيها ويسليها عن أبيها فدخل فلما نظر إليها صاح بأعلى صوته:

فقومي اضربي عينيك يا هند لن تري أباً مثله تسمو إليه المفاخر!

فقوله: اضربي عينيك، معناه: انظري، وهو المعنى الذي لا تزال العامة تستعمله في دمشق.

ومن قول العامة في أحاديثها: بسط لسانه فيه، أي طعن عليه، وقد جاء في الأغاني في أخبار إبراهيم بن العباس ونسبه ما يلي، كان محمد بن عبد الملك قد أغرى الواثق بإبراهيم بن العباس وكان إبراهيم يعاتبه على ذلك ويداريه ثم وقف الواثق على تحامله عليه فرفع يده عنه وأمر أن يقبل منه ما رفعه وردَّه إلى الحضرة مصوناً فلما أحس إبراهيم بذلك بسط لسانه في محمد وحسن ما بينه وبين أبي دواد وهجا محمد بن عبد الملك هجاءً كثيراً...

فلغة العامة في هذا التركيب مثل لغة صاحب الأغاني.

وإذا أرق أحد الناس قالت العامة: طار نومه وقد ورد هذا التعبير في شعر أبي العتاهية:

أرقت وطار من عيني النعاس ونام السامرون ولم يواسوا

فلغة أبي العتاهية، وهو من هو في الشعر، قد بقي منها أثر في لغة العامة في دمشق.

اجتزئ بهذا القدر من الاستشهاد فإن الغاية التي أرمي إليها إنما هي إحياء طائفة من بقايا الفصاح، سواء أكانت هذه البقايا مفردات أو تراكيب، والدلالة على فصاحة اللغة العامة في دمشق أو على قربها من الفصاحة.

ولعل لرأي الثعالبي بعض الصواب في هذا الباب.

مجلة المجمع العلمي العربي
بدمشق ١٩٤٥

obeikandl.com

بقايا الفصاح

نشرت من أشهر مقالاً في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق اشتمل على ذكر طائفة من بقايا الفصاح، وأعني بها الألفاظ التي استفاضت في العامَّة وأصلها فصيح، وهي لا تزال تستعمل في دمشق، مثل قولنا: فنَّكت فلانة، وفلان لعبه جماش، وفلان بعزق مال أبيه، أو مثل قولنا: باخ وفرتك والعطعطة والعراضة، وغيرها من الألفاظ التي تعاقبت عليها السنون، فتباعد فريق من الكتاب عنها، فذهب وهمنا إلى أنها عامية، فهذه الألفاظ وكثير من أخواتها لا تزال شائعة في دمشق، وأعتقد أن في كل قطر من أقطار العرب طوائف من هذه الألفاظ تجري بها ألسن العامة؛ وقد كنت رددت ما ذكرته من هذا النمط إلى أصله الفصيح، وبينت ماله من منزلة رفيعة في الأدب. وفي خلال مطالعتي لبعض أجزاء الأغاني في هذا الصيف، اهتديت إلى نمط آخر من بقايا الفصاح غير النمط الذي نشرته في مجلة المجمع العلمي العربي، فقد اهتديت إلى جملة من التراكيب التي شاعت في العامّة واستعملها بلغاء الكتاب في قديم الدهر، فقد أتى على استعمالها ما ينيف على ألف سنة والحياة لا تزال تملأ جوانبها، وأنا لا اذكر هذا النوع من الكلام لبلاغته، وإنما أذكره لشيء آخر غير البلاغة، أفلا نشتهي في عصرنا هذا أن نعرف اللغة التي كان أهل العصور الماضية يتكلمون بها في مجتمعاتهم ويستخدمونها في كتاباتهم؟ أفلا نشتهي أن نرى لغتنا متصلاً آخرها بأولها، وأن نعرف الأحوال التي تقلبت فيها على تراخي السنين؟ والخلاصة أفلا نجد لذة وحبوراً إذا علمنا أن التركيب الفلاني المتغلغل في يومنا

هذا إلى جماهير العامّة أصله فصيح، أتت عليه أحقاب طويلة وهو لا يزال حيّاً، لم يذهب بحياته تعاقب أمم شتى، ولغات شتى عليه، فقد استطاع أن ينجو من تأثير العجمة التي خالطت لغة البلاد، واستطاع أن يحتفظ بفصاحته وبعربيته على مرّ العصور، أفلا نجد لذّة وحبوراً إذا علمنا أن هذه اللغة التي نستعملها في أحاديثنا في عصرنا هذا كانت من ألف سنة لغة كتّابنا وشعرائنا، تفصح عن كثير من أفكارهم وعواطفهم، فنشارك أولئك الكتاب والشعراء في هذه الأفكار وفي هذه العواطف؟

إني أورد في مقالي هذا طائفة من تراكيب العامّة الفصيحة الأصل لأنها حلقة من لغتنا، فقد يأتي يوم يستطيع فيه العرب أن يصلوا آخر لغتهم بأوّلها، وأن يعرفوا الأطوار التي تقلبت فيها، سواء في ذلك لغة العامّة ولغة الخاصّة. فأي لذة أعظم من أن نعرف مثلاً اللغة التي كانوا يتكلمون بها على أيّام بني أمية في مجالسهم؟ فقد روى صاحب الأغاني أن زياداً الأعجم دعا غلاماً له ليرسله في حاجة فأبطأ، فلما جاءه قال له زياد: منذ لدن داوتك إلى أن قلت لي ما كنت تسنا؟ يريد بذلك: منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لبيك، ماذا كنت تصنع؟ فهذا طراز من الكلام الذي كانوا يستعملونه في المخاطبات العامة؛ وإذا كانت هذه الألفاظ على رأي أبي الفرج الأصبهاني في نهاية القبح والعجمة، فصاحبها له كلام في شعره نادر، ومعان نقية، وقصائد مختارة، ولكن هذه الألفاظ القبيحة لا تخلو من قيمة تأريخية، ليست بيسيرة، لأنها تدلنا على ضرب من الكلام المتداول في الأحاديث العامة.

من هذه التراكيب ما عدّل تعديلاً قليلاً في بعض الأحرف. إنا لا نزال نقول في لغتنا العامة: رجلي ورجلك، ونحن نقول هذا القول إذا شئنا أن نرسل رجلاً في أمر من الأمور، أو إذا شئنا أن نخرج هذا الرجل من المجلس؛ فإذا أراد أن يتملّص من الذهاب لخطورة الأمر أو

لشيء آخر، أو إذا أبى الخروج من المجلس وحده قال لمخاطبه رجلي ورجلك ولا أذهب وحدي.

ذكر صاحب الأغاني في كلامه عن أخبار ابن سريج مع سكينة بنت الحسين عليهما السلام ما يلي: وتذمَّم ابن سريج من الرجل صاحب المنزل، فقال لأشعب: اخرج من منزل الرجل، فقال: رجلي مع رجلك، فخرجا؟

فهنا استعملت مع بدلاً من الواو وهو تعديل يسير، وقد تكون الواو في هذا المقام أخف على اللسان من (مع)، فالمعنى الفصيح القديم مثل المعنى العامي الحديث.

ومن هذه التراكيب ما عدِّل تعديلاً يسيراً في ألفاظه، فقامت فيها لفظة مقام أختها؛ فمن قولنا في أحاديثنا العامَّة: فلان حطَّ عينه على كذا... إنَّا نقول هذا القول إذا أردنا أن نصوِّر طموح البصر أو امتداد القلب إلى أمر من الأمور المادية أو المعنوية.

تكلَّم صاحب الأغاني على حماد عجرد ونسبه، فمن جملة كلامه ما يلي: قال أبو يعقوب الخزيمي: كنت في مجلس فيه حمَّاد عجرد ومعنا غلام أمرد، فوضع حمَّاد عينه عليه.

فقد استعملت في هذا المقام مادة (وضع) بدلاً من حطَّ، والمادتان متقاربتان، وقد تكون حطَّ أخفَّ من وضع، فالتركيب الذي نستعمله في لغتنا العامَّة مثل التركيب الفصيح الذي كانوا يستعملونه في القديم.

ومن هذا النوع الذي لم يفقد شيئاً من قوته وحياته قولنا: قام مثل المجنون، ونحن نقول هذا القول إذا أردنا الإفصاح عن قيام رجل غاظه أمر من الأمور، أو سمع كلاماً فيه غلظة، أو ما يشبه هذه الحالات.

روى صاحب الأغاني في كلامه على أشعب وعلى أخباره حكاية أعرابي

عبثوا به في مجلس أبان بن عثمان، فقال في جملة كلامه: ثم نهض مثل المجنون، حتى أخذ برأس بعيره.

فاستعملت في هذا المقام نهض بدلاً من قام والمادتان متقاربتان في المعنى.

ومن التراكيب التي عدَّلت تعديلاً قليلاً في ألفاظها قولنا: بعثت وراءه، إذا أردنا بذلك دعوة رجل إلينا.

قال صاحب الأغاني في أخبار ربيعة الرقى: فوقعت الرقعة في يد صاحبه، فأوصلها إليه، من غير علمي ولا أمري، فبعث خلفي، فلما دخلت عليه...

فاستعملت (خلفي) بدلاً من (ورائي) والمعنى واحد.

ومن هذه التراكيب ما بقي على حاله، لم يعدل في أحرفه ولا في ألفاظه، مثل قولنا: مات من الضحك، إذا أردنا التعبير عن كثرة الضحك.

قال الشريشي في حكاية ابن المغازلي عند المعتضد ما يلي: ولم يبق ورائي خادم ولا غلام إلاَّ وقد ماتوا من الضحك.. فما أظن أن أحداً يشك في قوة هذا التعبير: مات من الضحك.

ومن هذا النحو قولنا في هذا العصر: استر علينا، الله يستر عليك.. إنا نقول هذا القول إذا صدر عن أحدنا أمر فيه ريبة، وقديماً كانوا يقولون القول نفسه، فقد ذكر صاحب الأغاني في كلامه على أخبار الحزين ونسبه ما يلي: فلما رآهما قال: أقسم بالله ما اجتمعتما إلا على ريبة، فقال له ابن العتيق: استر علينا، ستر الله عليك!

ومثل هذا التركيب قولنا: وقعت في أذني، أي الكلمة.

ففي كلام أبي الفرج الأصبهاني على أشعب وأخباره ما يلي: فقال لهم عثمان: من أغمد سيفه فهو حر، قال أشعب: فلمَّا وقعت والله في أذني كنت أول من أغمد سيفه...

وقد يطول ذكر هذه الشواهد فأختمها بحادثين لأنتقل إلى نمط آخر من بقايا الفصاح دون شيء من التبسيط.

لا يزال الناس يعوذون بالله من الشيطان الرجيم، ويلعنونه في كل مقام، ومع هذا كله فهم لا يستغنون عن هذا الشيطان في استعمالهم لبعض أنواع البديع، فهو مادة لبعض تشبيهاتهم واستعاراتهم، فالعامة لا تزال تقول: فلان شيطان، وتريد بمثل هذا الكلام الدلالة على فهمه أو على حذقه أو على حسن تصرفه وأشباه هذه الأمور.

وقد جاء في الأغاني في كلام لصاحبه على خبر لبيد في مرثية أخيه ما يلي: وكان هؤلاء الثلاثة رؤوس القوم وشياطينهم.

فلا غنى لنا عن الشياطين لا في القديم ولا في الحديث، إنهم لا يزالون مادَّة لبياننا.

أما المادة الثانية فهي قولنا: فلان متكلم، ونحن نريد بذلك تصوير الرجل الذي إذا تصدر كان له بيان رائع في كثير من الأمور.

وفي الأغاني، في كلام لأبي الفرج على الزرقاء صاحبة ابن رامين مايلي: وكانت عاقلة، مقبولة، متكلمة، فأعجبه ما رأى منها.

فليس في اللغة لمادة متكلم هذا المعنى الذي جعلوه لها في القديم والحديث، ففي اللغة يقال: تكلَّم فلان إذا تحدث، ورجل تِكْلامة وتِكْلام وكَلْماني وكِلمَّاني جيِّد الكلام فصيحه ولكن الرجل المتكلم غلب على الرجل التكلام أو الكلماني، فالعامة تذهب إلى سهولة التعبير بطبيعتها.

وإلى جنب هذا الطراز من تراكيب العامَّة الفصيحة الأصل طراز آخر يدخل في اللغة الشعرية؛ فالعامَّة تميل في بعض لغتها إلى البديع وتستعمله من دون علمها، فمن قول العامة في دمشق: بالوعد يا كمُّون، وهم يقولون هذا القول لرجل غير صادق الوعد.

وقد لجأ إلى هذا التعبير شاعر منقطع النظير، وأعني به بشاراً، فقد قال في هجو حمَّاد عجرد:

مواعيد حمَّاد سماء مخيلة تكشف عن رعد ولكن ستبرق

إذا جئته يوماً أحال على غد كما وعد الكمون ما ليس يصدق

ولكني أرى قول العامة (بالوعد يا كمون) أخفَّ على اللسان من شعر بشَّار.

ومن هذا النوع قولنا في أحاديثنا العامة: من الدلف إلى تحت المزراب، ونحن نريد بذلك الانتقال من مصيبة إلى مصيبة أعظم.

ولكن ليس في اللغة لمادة الدلف المعنى الذي تريده العامة، فهي تريد بالدلف الوكف والقطر، وأمَّا المزراب فهي فصيحة، إنها المرزاب، والمرزاب هو الميزاب، قال أبو العتاهية:

أنت مثل الذي يفر من القطر حذار الندى إلى الميزاب

وهكذا قد نجد في بعض تراكيب العامَّة ما انحدر أصله الفصيح عن شعراء أمثال بشار وأبي العتاهية، إلا أني لا أشاء الإسهاب في هذا الباب، وإنما ذكرت ما ذكرت من بقايا الفصاح في مقالي هذا حتى أبين أنه كما استطاعت طائفة من الألفاظ الفصيحة أن تعيش في العامة في عصرنا هذا على الرغم من تعاقب السنين عليها، فكذلك استطاعت طائفة من التراكيب الفصيحة أن تعيش في هذه العامة، فهل يأتي علينا حين من الدهر نرى فيه تقارب لغة العامة ولغة الخاصة كما هي الحال في بعض لغات الإفرنجة؟

مجلة الثقافة

القاهرة

بقايا الفصام

أرجع إلى موضوع تصديت له في هذه المجلة من زمن غير بعيد وقد ذكرتني إياه زيارة زرتها من شهر للجامعة العبرية في القدس، فقد زرت المكتبة في هذه الجامعة، فأراني بعض أساتيذها عملاً من أجلّ الأعمال، فقد هيأوا في القسم الشرقي من هذه الجامعة دفاتر دونوا فيها ألفاظ اللغة العربية على حسب تأريخها. إنك تطلب مثلاً أن تعرف متى استعملت لفظة الثوب، ومن هو أول من استعملها، فتطالع الدفتر المختص بلفظة الثوب، فتجد أنها استعملت في العصر الجاهلي، استعملها فلان وفلان، ثم استعملت في العصر الإسلامي، استعملها فلان وفلان، ثم استعملت في العصر الأموي، استعملها فلان وفلان، إلى آخر عصور استعمالها.

وعلى هذا النحو من الترتيب نستطيع أن نعرف أطوار لغتنا المعرفة المتكاملة، فمتى تم هذا التدقيق فإنا نستطيع أن نعرف أطوار الألفاظ، ميلادها ونشأتها وموتها أو بقاءها. كيف كان معنى لفظة من اللفظات في أول ميلادها؟ وهل حافظت على أصل معناها في خلال نشأتها؟ وهل ماتت هذه اللفظة أو عاشت؟ وفي أي عصر كان موتها أو بقاؤها؟ ثم نستطيع أن نعرف أطوار المعاني التي تقلبت فيها اللفظة؛ فنستطيع أن نعرف أن أصل معنى الكفر في اللغة كذا وكذا.. ثم جاء الإسلام فتحولت هذه اللفظة عن أصل معناها ودخلت في معنى آخر جعله لها

الإسلام؛ ثم نستطيع أن نعرف أن اللفظة الفلانية لم تكن في الجاهلة ولا في الإسلام ولا في عصر بني أمية وإنما ولدت في عصر بني العباس، وعاشت مع العباسيين، ثم ذهبت دولتهم فذهبت هذه اللفظة بذهابها.

ولو شئت أن أفصل فوائد هذا الباب لامتد بي نفس الكلام، ولست أعرف في اللغة بحثاً جمع من اللذة ما جمعه نظير هذا البحث. فمتى استطعنا أن ندون ميلاد الألفاظ ونشأتها وموتها أو بقاءها في كتاب أو في كتب فإنا نستطيع أن نشهد ميلاد فكر العرب وشعورهم وعاطفتهم، كما نستطيع أن نشهد الأطوار التي دخل فيها هذا الفكر وهذا الشعور وهذه العاطفة.

بعد هذه المقدمة الوجيزة أدخل في موضوع مقالي، وهو جزء من أجزاء معرفة أطوار اللغة، وقد كنت أتيت في مقام متقدم على ذكر طائفة من التراكيب الفصيحة التي استعملت من ألف سنة ولا تزال في عصرنا هذا شائعة في العامة في دمشق. وأذكر الآن في مقالي هذا ما اهتديت إليه حديثاً من نظائر هذه التراكيب، وقد يكون عمل لا شيء إلى جنب العمل الذي أشرت إليه في صدر هذا المقال؛ ولكن إذا تفرغ كل واحد منا لجمع ما يعثر عليه في لغة العامة من مفردات أو تراكيب أصلها فصيح، ثم استطاع أن يردها إلى أصلها، فإني أعتقد أنّا بعد جملة من هذه الأعمال نيسّر للقائمين عل معرفة أطوار اللغة سبيلهم، ونخفف عنهم بعض العناء.

وقد تكون لغة التراكيب الفصيحة الشائعة في العامة لغة شعرية، فهي لا تخلو من باب من أبواب البديع، كالاستعارة أو الكناية أو التشبيه أو غير ذلك، مما يدل على أن العامة تميل إلى اللغة الشعرية، أي إلى الصور في ألفاظها، من غير أن تشعر بذلك، وقد تكون هذه التراكيب

خالية من أبواب البديع، فهي مستعملة على حقائقها ليس فيها شيء من المجاز.

من قول العامة في دمشق: «عينك عليه» وهم يريدون بذلك الاستعطاف على رجل من الرجال؛ وقد يقولون: عين عليه، وهم يريدون مراقبة الرجل.

وفي نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي: ثم دخل وعيني عليه، فضرب يده إلى قبر في القبة ليحفر ... فمعنى عيني عليه في هذا المقام المراقبة لا الاستعطاف، وهو من المعاني التي تستعملها العامة.

ومن قولهم: «كأني أحكي مع الحيطان»، أي أن الذي أحدثه لا يصغي إليّ أو لا يفهم ما أقول؛ والتشبيه بالحيطان في هذا الموضوع من أبلغ التشبيهات.

وقد ذكر صاحب الأغاني في كلامه على أخبار حنين الحيرى ونسبه حكاية ظريفة حكاها حنين في أثناء خروجه إلى حمص والتماسه الكسب بها، فقد قال حنين وهو يصف أهل حمص: «فابتدأت في هنات أبي عبّاد معبد، فكأنما غنّيت للحيطان، لافكهوا لغنائي ولا سروا به.».

ومن التراكيب الفصيحة الشائعة في العامة: «اغسل يدك منه»، وهم يريدون بذلك قطع الأمل من فلان أو من أمر من الأمور.

أتى أبو دلامة العباس بن محمد في عشر الأضحى يتنجزها فقال العباس: «يا أبا دلامة! أليس قد مات ابنك؟ قال: بلى! قال: انقصوه دينارين. قال: أصلح الله الأمير، لا تفعل، فإنه ترك عليَّ ولدين! فأبى إلا أن ينقصه. فخرج أبو دلامة وهو يقول:

أخطاك ما كنت ترجوه وتأمله فاغسل يديك من العباس بالياس

واغسل يديك بأشنان فأنقهما مما تؤمل من معروف عباس

هذه الحكاية نجدها في الأغاني في كلام صاحبه على أخبار أبي دلامة ونسبه.

ومن قول العامة في دمشق: «لا يجمعنا سقف»، وهم يريدون بذلك غاية التباعد والتقاطع، وقد ورد في شعر عمر بن أبي ربيعة هذا التركيب نفسه:

ليشهد الرحمن لا يجمعنا سقف بيت رجباً بعد رجب

إلا أن قول العامة أوجز وأخف، فقد استغنوا عن كل حشو.

ومن قولهم: «الله لا يخليني إذا خلّيته يمشي على الأرض» فإذا وقع بين الرجلين شيء من النزاع، وعزم أحدهما على قتل الآخر قال هذا القول، وهو غاية في التهديد .

وفي كلام ابن هشام على إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً...

فاللفظ والمعنى في التركيبين الفصيح والعامي واحد لا تباعد بينهما.

ومن التراكيب الفصيحة الشائعة في العامة قولهم: «انتظر حتى تهدأ الرِّجل» وهم يريدون بذلك خفّة الازدحام .

وقد ورد في الأغاني في كلام صاحبه على عدي بن زيد ونسبه وقصته ومقتله ما يلي: وقال لعدي: ائتني الليلة إذا هدأت الرجل لتعلم حالي...

إلا أن العامة تستعمل الرجل بكسر الراء معتدة أنها ضد اليد، وأظن أن الرجل في هذا التركيب الفصيح جمع الراجل وهو غير الفارس، وعلى هذا تفتح الراء ولا تكسر، فالمعنى حتى يهدأ الناس الماشون على أقدامهم أي حتى تخف الزحمة.

ومن قولهم في دمشق: «شفت الهلال على وجه» وهم لا يريدون بهذا القول

شيئاً من الغزل، وإنما يريد قائل هذا القول : أول شيء رأيته عند طلوع الهلال وجه فلان. فمن قول عبد الله بن محمد الأمين في المعتمد:

رأيت الهلال على وجهكا فنا زلت أدعو إلهي لكا

فالمعنيان في التركيبين واحد، إلا أن العامة استعملت مادة: شاف، وفي اللغة: شفته، معناها: جلوته.

ومن التراكيب الفصيحة قولهم: «هجم الشتاء» وهم يريدون بذلك مفاجأته للناس.

وقد ورد في الأغاني في حكاية حكاها أبو الفرج عن إسحق بن إبراهيم ما يلي: فلما أصبحت، أرسل إليّ أبي، فقال: يا بني، هذا الشتاء قد هجم عليك، وأنت تحتاج فيه إلى معونة...

ومن هذه التراكيب قولهم: «كل كلام وله جواب». قال جميل:

وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يابثين جواب

وتقول العامة في دمشق: «مر على رأسه شيء كثير» وهم يريدون بذلك تصوير الرجل المجرب، المحنك، الذي مارس الأيام ومارسته.

وقد جاء في الأغاني في كلام أبي الفرج على هلال ونسبه ما يلي: وعمَّر هلال بن أسعر عمراً طويلاً، ومات بعد بلايا عظام مرت على رأسه..

لا يتسع المجال في هذا المقال لذكر أكثر مما ذكرت من التراكيب الفصيحة الشائعة في العامة في دمشق، فهل نستطيع أن نعرف جملة من أمثال هذه التراكيب الشائعة في العامة في مصر؟

مجلة الثقافة

القاهرة

بقايا الفصام

إذا كنت أنقّب من حين إلى آخر عن بقايا الفصاح في لغتنا العامّة في دمشق، فلست أرمي في هذا التنقيب إلى مجرّد الاهتمام باللغة أو بحياة الألفاظ، وإنما أرى في بقايا الفصاح ما يوحي إلينا نمطاً من الحياة أو طرازاً من البنيان أو نظائر هذه الموضوعات، فقد تعيننا اللغة على تذكرّ ما فاتنا من الأمور في مواضي السنين، أو على معرفة ما زال مستمراً من هذه الأمور أو ما اضمحلّ منها، من هذا القبيل فعل: شطف، فلنرجع إلى دورنا القديمة في دمشق.

كان ربّ البيت يعيش هو وابناؤه وأحفاده في بيت واحد في أكثر الأحيان، وقد استعملت في هذا المقام لفظة البيت بدلاً من لفظة الدار، فإنهم في دمشق يقولون: بيت فلان ولا يقولون: دار فلان، أمّا في مدن ثانية فإنهم يقولون: دار فلان، وقد تكون الدار أعمّ لأنها تجمع البناء والعرصة، وكان البيت في الأغلب من الأوقات ذا طاقين، الطاق الأول يشتمل على صحن الدار، وعلى الإيوان، واسمه في اللغة العامة: الليوان، وعلى مخادع وقاعات ومربَّعات يتقون فيها شدّة الحرّ في الصيف، والطاق الثاني يحتوي على ما يسمّونه القصر «والفرنكات» يتّقون فيها شدَّة البرد في الشتاء، فالبيوت كانت مبنية على شكل يناسب دمشق من حيث الحرّ والبرد، ولمَّا كان البيت الواحد يضمّ صاحبه وأبناءه وأحفاده كانت النساء يتناوبن على تنظيف الصحن، واسمه في اللغة العامة: الديار، فكل امرأة لها نوبة، واللفظة التي كانوا يستعملونها في هذا

التنظيف إنما هي فعل: شطف، فصحن الدار كانوا يشطفونها كل يوم أو كل يومين، والماء من البركة في وسط الدار واسمها: البحرة، فالذي يعنينا من هذا كله إنما هو فعل: شطف.

ماذا نجد في اللغة، يقول الفيروزآبادي في قاموسه المحيط: شطف ذهب وتباعد وغسل، فمادَّة شطف لها أصل في اللغة الفصيحة، ولكنها إذا كان معناها: غسل، فهي سوادية، أي من لغة أهل السواد، أمَّا في دمشق فإنها من لغة أهل الحضر، فالطبقات كلها تستعمل هذه المادة في لغتهم، فيقولون: شطف البيت.

ماذا بقي من أصل هذه المادَّة في لغة دمشق، إن فعل شطف لم يمت في لغة العامَّة، وإن كان البنيان قد اختلف طرازه عمّا كان عليه في الماضي، فلا نجد لأغلب دور دمشق صحناً في وسطه بحرة، وإنما الدور أصبحت طيقاناً، كل طاق فوقه طاق ولا صحن له، فلم تبق حاجة إلى شطف في هذا المجال، إلاَّ أن فعل شطف لم يمت، فهو لا يزال مستعملاً في لغتنا العامَّة ، فلا نزال نقول: اشطف الملعقة أو الصحن أو الكأس وغير ذلك من ماعون البيت، ونحن نريد بذلك قولنا: اغسل، وقد تستعمل هذه المادَّة مجازاً فنقول: اشطف يدك منه، أي انزعه من فكرك، فلا أمل فيه أو لا فائدة، وقد يستعمل هذا الفعل مشدداً فنقول: شطَّفت ابنها، ونحن نعني بذلك وجهاً معروفاً من النظافة.

وكما أوحى إلينا فعل: شطف طرازاً من البنيان ونمطاً من الحياة الاجتماعية فكذلك أوحى إلينا فعل: نقط شكلاً من هذه الحياة، فلنرجع إلى ماضي دمشق.

كانت بعض هذه الأسر في دمشق التي رزقها الله تعالى شيئاً من النعيم إذا تزوَّج أحد رجالها أو ختن أحد أولادها تفرح بهذا الزواج وبهذا الختان ويسمّونه: الطهور، ومن مظاهر الفرح إحياء ليلة تغنّي فيها المغنيات في صحن الدار أو في القاعة، وتدعى إلى هذا الفرح بعض السيدات من الأقارب

والأصحاب، وكانت السيّدات يتنافسن في اللباس والحليّ، فكان لا بدّ لكل سيّدة على ما أذكر من أن تخيط لها ثوباً خاصاً تلبسه في هذه الليلة ولا تلبسه في ليلة فرح ثانية، كما كان لا بدّ لها من التزين بالحليّ، فبعض السيّدات كان لهنّ حليّ، وبعضهن كنَّ يستعرن الحليّ في ليالي الفرح، ثم يعدنها إلى أصحابها بعد الفرح، وأكثر المغنّيات كنَّ يهوديات مشهورات من حارة اليهود في دمشق، فكنّ يغنّين الليلة كلها وتمتدّ السفرة في الليل فتأكل منها المدعوات من النساء. كانوا ينقّطعون المغنيات بالمال، وينقطون العروس أو الأولاد المختونين بالحليّ أو بالمال، معنى هذا أنهم كانوا يدفعون إليهم ما يتيسَّر لهم من الحليّ من قرط ويسمونه : الحلق، أو خاتم أو سوار أو عقد وما شاكل ذلك، وفي الصباح تنصرف المغنيات والمدعوات، أمّا في عصرنا فقد بطل ما يسمّونه الليليات أو قلّ جداً، وإنما مظاهر الفرح تقام اليوم في فندق كبير أو في ناد مشهور، يقدَّم فيها المأكول والمشروب، أمَّا المغنّيات اليهوديات فلم يبق لهنَّ أثر، وقد يجوز أن يغنّي في ليالي الفرح بعض من اشتهر بالغناء.

فالذي ينصرف إليه ذهننا إنما هو فعل: نقط، فهذا الفعل أوحي إلينا نمطاً من الحياة الاجتماعية قد انتقل في عصرنا من طورٍ إلى طور، فهل كان لفعل نقط ذكر في الماضي، نجد في الأغاني استعمال هذا الفعل بمعناه الحديث في مواطن مختلفة، فقد ورد في أخبار محمد بن الحرث بن بشخير[1] ما يلي : ونقطها بدنانير مسنتة كانت معه في خريطته.. ثم جاءت في أخبار أشعب هذه العبارة: وفرض لي، أي نقطني، يعني ما يهديه الناس للمغنين، ويسمونه: النقط.. هذه هي عبارة الأغاني، إلاَّ أن النقط تسمّيه العامَّة في لغتنا اليوم: النقوط، وتستعمل

---

[1] في الأغاني جزء (١) ص(٥) ط دار الكتب ضبط الاسم: الحارث بن بَسْخُنْر نقلاً عن الأستاذ الشنقيطي بخطه وضبطه: بضم الباء وتسكين السين وضم الخاء وإسكان النون. وقد ورد الاسم في نسخة أخرى بشخير وفي سائر النسخ «شخير» كما جاء في الأغاني – المجلة –.

الفعل مشدداً، ولم أجد لهذه المادَّة في القاموس المحيط المعنى الذي أشار إليه صاحب الأغاني، وإنما جاء في معناها: نقط الحرف ونقَّطة بالتشديد، أعجمه، والاسم: النقطة.

وفي القرية التي أعيش فيها من أربعين سنة يستعملون: حمل له بدلاً من نقطة، فإذا مرض أحد من أهل القرية أو نقه من مرضه أو تزوَّج أو عاد من الحج أو من سفر. أو إذا ختن أحد الأولاد فإنَّ بعض الأهل والأصحاب يحملون له ما يتيسَّر لهم من لبن أو حليب أو فاكهة أو برغل أو سكر أو حلواء، وقد يدفعون في بعض الأحوال شيئاً من المال، فالفعل الذي يستعملونه في مثل هذا المقام إنما هو: حمل له وقد تقرأ قصة المولد إظهاراً للفرح.

ومن الألفاظ التي تذكرنا موسماً من مواسم الحج في دمشق من ستين سنة لفظة: العكام. وقبل الشروع في شرح هذه اللفظة لا بأس بأن نشير إلى زمن استعمالها، كان يوم الحج في دمشق يوماً مشهوداً وكانوا يقولون: فرجة الحج، فيزدحم الناس على جانبي الطريق الممتد من الدرويشية إلى آخر حيّ الميدان حتى القدم، وكانوا يزوّقون الجمل الذي عليه المحمل، حتى إذا وصل إلى آخر الميدان، إلى «العسالي» جمعوا اللوز والسكَّر ودحرجوه في فمه إكراماً له، وكان يخرج في موكب الحج من كانوا يسمونهم: باشا الحج، ونقيب الأشراف، وغيرهما من كبار الحكومة على خيول مطهَّمة، فإذا وصل الموكب إلى «العسالي» انفضَّت جماهير الناس وعادوا إلى بيوتهم أو دكاكينهم أو مخازنهم. كان الحجّاج يذهبون إلى الحج على ظهور الإبل ، فيقضون شهراً أو أكثر في هذه الصحراء الممتدة من دمشق إلى المدينة، ويعانون في الطريق ما يعانون من المتاعب، وكان لكل جمل رجل يقال له العكَّام، وهو صاحب الجمل يتولَّى خدمته وسوقه على الطريق، وكان العكامون أكثرهم من حارة الشاغور في دمشق.

لقد بطلت هذه الأمور كلّها في يومنا فلم يبق للحج موسم ولا فرجة ولا موكب، وإنما الناس يحجّون في عصرنا إمّا على الطائرات وإمّا على السيارات وإمَّا على السفن، وإذا بطلت فرجة الحج. فقد بطلت معها لفظة: العكَّام.

ما هو أصل هذه اللفظة، فهل لها صلة بما كانت تدلّ عليه.

نجد في الأغاني في ذكر متمم[1] وأخباره وخبر مالك ومقتله ما يلي: فلما دخل آخر الجمال نخس البوّاب عكماً من الأعكام بمنخسة معه... في القاموس المحيط: عكم المتاع يعكمه شَدَّهُ، والعِكْمُ بالكسر العِدْلُ، والجمع: أعكام .

من هذا يتبين لنا أن لفظة العكَّام ليست غريبة عن المعنى الذي كانوا يطلقونه بدمشق عليها، فالعكَّام في اللغة من يشدّ المتاع بثوب، والعكَّام في موسم الحج كان يقود الجمل ويشدّ متاع الحجّاج، ويتولى في الوقت نفسه خدمة الجمل وخدمة الحجَّاج.

لقد ذهب الجمل وذهب العكَّام وذهبت فرجة الحج، ولم يبق لنا من هذا كله إلا الذكرى التي أحيتها لفظة: العكَّام. على أن مادَّة عكم لا تزال شائعة في لغة العامَّة، إلاَّ أنَّ شيوعها على سبيل المجاز، فإذا قالوا: عكمه أو عكمها وذهبا معاً فهم يريدون بقولهم أنَّه أخذه أو أخذها معه، وقد يتضمن هذا الأخذ شيئاً من الإيثار، فكما أنَّ معنى عكم المتاع الفصيحة شدَّه بثوب، فكذلك معنى عكم فلان فلاناً العامية شدَّه إليه وراح إيثاراً له، وهذا من باب المجاز.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٠

(١) هو متمم بن نويرة وأخوه مالك الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الردّة

بقايا الفصام

إذا كنا نبحث عن ألفاظ في لغة العامَّة ترجع إلى أصل فصيح فليس معنى هذا أنَّا نحرّض على استعمال لغة العامّة، والذي نتوخاه من بحثنا إنما هو الرجوع إلى حياة الألفاظ، كيف تنتقل معاني الألفاظ على مرّ السنين من وجه إلى وجه، تارة من وجه خاص إلى وجه عام، وتارة من وجه عام إلى وجه خاص، وحيناً تنقلب معاني الألفاظ رأساً على عقب، وحيناً تتحوّل من الحقيقة إلى المجاز، ولو كان عندنا معجم يدوّن تاريخ الألفاظ، في أيّ عصر ظهر اللفظ الفلاني وفي أيّ عصر انتقل هذا اللفظ من معنى إلى معنى أو مات استعماله، لو كان عندنا معجم من هذا القبيل لسهلت علينا معرفة حياة الألفاظ، وإذا كنَّا لا ننظر في لغتنا بمثل هذا المعجم فأيّ محذورٍ في البحث عن الألفاظ المستفيضة في لغة العامّة والمقابلة بين معانيها في هذه اللغة وبين معانيها في اللغة الفصيحة؟

فلنشرع بعد هذا كله في ضرب الأمثال:

تقول العامّة في لغتها: فلان يدج دجّاً، أو فلان يدجّ كلامه، وهي تريد بذلك أنه يقذف باللفظ دون شيء من المراعاة، فهو يصرح تصريحاً بدلاً من أن يعرض تعريضاً،ـ فإذا كان فلان يسرق أو يكذب أو ينافق قال له الآخر في وجهه: إنه سارق أو كذّاب أو منافق دون مراعاة أدب الحديث، فهذا النوع يقال له في لغة العامّة: الدجّ.

فلنرجع إلى اللغة، ماذا نجد في مادّة دجّ، يقولون: دجّ يدجُّ بالكسر دجيجاً دبّ في السير، ولا حاجة بنا إلى الاستقصاء في معاني هذه المادة الكثيرة، والدبّ والدبيب المشي على الهينة، أي على التؤدة، يتبين لنا أن العامّة حوّلت معنى دجّ من وجه إلى ضده، فهي إذا قالت : فلان يدجّ فإنها لا تقصد الهينة وإنما تقصد العنف والشدّة، وقد استغنت عن المصدر: الدجيج، ولجأت إلى المصدر: الدجّ وإن كان يقال: دجّ البيت دجاً أي وكف.

أفلا نجد شيئاً من اللذة في مثل هذا البحث، وفي مثل هذه المعرفة، أفلا نجد شيئاً من المتعة في الوقوف على حياة الألفاظ وانتقالها من معنى إلى معنى في لغة العامّة؟

وما يقال في مادّة: دجّ، يقال في مادّة: جخّ، نجد في اللغة من معاني جخّ: تحوّل من مكان إلى آخر، ولكن العامّة لم تستعمل هذا المعنى في لغتها في وجه من الوجوه، وإنما تريد بالجخّ التأنق في كل شيء، في الملبوس والمركوب وفي المأكول والمشروب، إنها تريد التأنق في مذاهب الحياة كلها، فأيّ صلة للتحول من مكان إلى آخر بمثل هذا التأنق والتنعّم، فالعامّة قد قلبت معنى المادّة في لغتها دون الاهتمام بأصل معناها في اللغة الفصيحة، وقد يقع مثل هذا القلب في لغة الخاصة أيضاً، فإنّا نجد في كتب أدبنا المشهورة ألفاظاً كانت تستعمل في عصر من العصور ولها معنى خاص، ثم تحول هذا المعنى في عصر آخر من وجه إلى وجه، والشواهد على ذلك غير قليلة، وقد يستغنى عنها في مثل هذا المقام حرصاً على الإيجاز. فلنستمرّ في هذا السبيل.

نجد لمادّة كبس معاني كثيرة يستغنى عن الاندفاع فيها، فمن

المعاني التي يشترك في استعمالها الخاصة والعامَّة قولهم: كبس داره أي هجم عليه واحتاط.

وقولهم : السنة الكبيسة وهي التي يزاد فيها يوم، وذلك في كل أربع سنين.

وقد استخرجت العامّة من هذه المادة صورة مجازية فهي تقول: كبسه كبسة قويّة أي ردّ عليه في مجادلة ردّاً عنيفاً أو أهانه إهانة ثقيلة أو عنفه تعنيفاً بالغاً وغير ذلك من المعاني، وليس من تباعد شديد بين الصورة العامَّية والصورة الفصحى، نجد في اللغة: كبس البئر والنهر يكبسهما بالكسر طمّهما بالتراب، فكأن الذي يكبس الآخر في مجادلة أو إهانة أو تعنيف أو غير ذلك يطمّه بهذه الأمور بدلاً من أن يطمّه بالتراب.

وقد استعملت العامّة هذه المادّة في مقام آخر فهي تقول: كبس الباذنجان أو الخيار أو غير ذلك، فلم تبعد في هذا الاستعمال عن معنى المادّة الفصيح فالذي يكبس النهر أي يطمّه بالتراب مثل الذي يكبس الباذنجان أو الخيار أي يطمّهما بالماء والملح.

فلننتقل إلى مادة ثانية، إلى مادَّة: كدس فإذا تخطَّينا معاني هذه المادة المختلفة ووقفنا على معنى واحد منها وجدنا أنه ليس من تباعد بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي، نجد في اللغة: الكداس كغراب: ما كُدس من الثلج، والكداسة بالضم: ما يكدس بعضه فوق بعض، فالعامّة تستعمل هذه المادة مشدَّدة: كدّس، وهي تستعملها في معنى جمع الأشياء، فهي تقول مثلاً: الحنطة مكدَّسة، فهي تشير في ذلك إلى الكثرة، أو تقول: الكتب مكدَّسة في غرفته فهي تشير أيضاً إلى الكثرة دون ترتيب.

ثم جاوزت العامّة هذه المعاني الكثيرة إلى معنى خاص يراد به الجمع والحرص فهي تقول: الذهب مكدَّس في صندوقه، ففي كل هذه المعاني لا تباعد بين الصورة العامة والصورة الفصيحة.

وقريب من هذه المادَّة فعل: كردس، ففي اللغة: كردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة، وكردس بالضم جمعت يداه، فالعامَّة تستعمل هذه المادة للدلالة على الجمع دون ترتيب وأظن أن الذين يكردسون الخيل فيجعلونها كتيبة كتيبة إنما يرتّبون هذا الجمع، أمّا العامّة إذا قالت: إنهم يكردسون البضائع في مخازنهم، فإنها تريد بذلك جمع البضائع دون شيء من التنسيق، وعلى كل حال إذا قلنا: كردس فلان بالضم أي جمعت يداه فلا نبعد عن معنى الجمع في استعمال الكردسة، فالعامَّة لا تبعد في ذلك كثيراً من اللغة الفصحى.

وإنَّا لنكتفي بالذي ذكرناه تفادياً من التطويل

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٣

obeikandl.com

بقايا الفصاح

أعود إلى موضوع: بقايا الفصاح، وكلما عدتُ إلى هذا الموضوع تبين لي فيه وجه جديد، فإذا كنت أرى في بعض هذه الألفاظ التي تشيع على ألسن العامة أصلاً فإني أرى فيها وجهاً آخر، ولست أدري أكنت مصيباً في هذا الرأي أم كنت مخطئاً، إني أرى أن لغة العامة قبل العصور التي انحدر فيها الأدب كانت أقرب من اللغة الفصحى وقد يكون السبب في هذا القرب بُعد الأعاجم عن ديارنا، فلمّا وقع الاختلاط بالأعاجم انحدرت لغة العامة بعض الشيء وبقيت في هذا الانحدار بقايا من الفصاح لا نزال نسمعها إلى يومنا هذا، وكيف كان الأمر فإن هذا رأي من الآراء يجوز فيه الأخذ والردّ.

من هذه البقايا مادة: وَرِش، فكثيراً ما نسمع في لغة العامّة، ولا سيما لغة السيدات: هذا الصبي ورش، وهم يريدون بذلك أنه كثير الحركة، كثير الضجة، كثير اللعب، إذا وقعت يده على شيء أخذه وربما كسره أو عطله أو ما يشبه ذلك. وما سمعت أن هذه المادة تطلق على الكبار، ولكنهم يطلقونها على الصغار، ولا سيما الصبيان. وإني لفي يوم من أيام مطالعاتي خطر ببالي هذا المثل «بِعِلَّة الوَرَشان يأكل رطب المشان»، ويضرب على نحو ما هو مدوّن في المعجمات لمن يظهر شيئاً والمراد منه شيء آخر، فأحببت أن أعرف ما هو هذا الورشان وإذا هو على نحو ما جاء في القاموس المحيط طائر لحمه أخف من

الحمام، وفي أثناء تفتيشي عن معنى الورشان مررت بمشتقات هذه المادة، وفي جملتها: الورش ككتف، النشيط، الخفيف من الإبل وغيرها، وهي بهاء، فالصبي ورش والبنت ورشة. فنحن نرى أن الورش التي عاشت على ألسن العامة أصلها فصيح، وأن بين المعنى العامي والمعنى الفصيح تقارباً، فالصبي الورش الذي تكثر حركاته وتكثر ضجاته ويكثر لعبه بكل ما تمتد إليه يده إنما هو خفيف بطبعه، نشيط. وإذا كانت المفردات التي تعرب عن هذا المعنى كثيرة في اللغة فإني أعتقد أن مادة الورش التي استفاضت في لغة العامة لا تعدلها مادة ثانية في قوتها.

وما دمنا نعرض لطائفة من صفات الصبيان فلا بأس بأن نذكر مادة ثانية يستعملونها في مخاطبة الصبيان، فإن المرأة إذا أرادت أن تزجر طفلها عند تناول شيء مضرّ وأن تزجره عند إفساد شيء أو كسر شيء قالت له: : كخ! ماذا نجد في القاموس المحيط، إنا نجد: كخ كخ، وتشدّد الخاء فيهما وتنوّن وتفتح الكاف وتكسر، واختارت العامة كسر الكاف وتشديد الخاء، يقال هذا عند زجر الصبي عند تناول شيء وعند التقذر من شيء، ولم يذكر الفيروزآبادي أصل هذه المادة، أهي عربية أم هي أعجمية، وقد قيل فيها إنها عربية، وقيل إنها فارسية، وصرح ابن الأثير وغيره من أهل الغريب بأنها غير عربية. هذا ما جاء في شرح ديباجة القاموس، وقد قرأت في موضع من المواضع أن هذه المادّة تقولها العجم، وأن العرب يقولون مادّة ثانية على وزن: قد، ولكني نسيت هذه المادة.

وإذا كانوا يستعملون: كخ كخ عند زجر الصبي عند تناول شيء وعند التقذر من شيء فإنهم عند تعليل الصبي بنقش يلوحون له به

يقولـون: دح. ففـي اللغـة: داح، نقـش يلـوّح للصبيـان يعلّلـون بـه، إلا أن العامـة حذفـت الألـف مـن داح وقـالت: دحّ، بتشـديد الحـاء جريـاً علـى عادتهـا فـي التسـهيل.

ولننتقل الآن من لغة الصبيان إلـى عمـل آخـر لا يبعـد عنـه الصبيـان. أذكـر أنـي لما كنت في وزارة المعـارف مـن أربعيـن سـنة زارتنـي سـيدة أميركيـة وأخـذت تثنـي علـى إمـام المحدثيـن فـي الشـام المرحـوم الشـيخ بـدر الديـن الحسـني، وكـانت معجبـة بوقـاره ونـور وجهـه. قلـت لهـا: مـا الـذي جـاء بـك إلـى سـورية؟ قـالت: إنـي مختصـة بـالخطوط الشـرقية، فحسـبت أن الأمـر جـدّ فقلـت لهـا: هـل تكتبيـن لـي خطـاً بيـدك؟ فأمسـكت بـالقلم وكتبـت علـى ورقـة وأعطتنـي الورقـة، فدققـت فـي الورقـة فلـم أفهـم شـيئاً، فـأطلعت عليهـا المرحـوم الأمـير جعفـر الحسـني، مديـر دار الآثـار وقلـت لـه: مـا هـذا الخـط؟ فحسـب مثلـي أن الأمـر جـد، فنظـر قليـلاً ثـم قـال: هـذا مـا نسـميه خربشـة الجـاج، أي الدجـاج، والعامـة تحـذف الـدال علـى سـبيل التخفيـف، فبقيـت فـي ذهنـي لفظـة الخربشـة فرجعـت إلـى القـاموس المحيـط فوجـدت فـي اللغـة: خربـش الكتـاب أفسـده، فالخربشـة فصيحـة، وهـي أدلّ مـادة علـى هـذا النـوع مـن الخـط الـذي لا هـو عربـي ولا هـو أعجمـي، فالخربشـة عبـارة عـن خطـوط تلقـى علـى ورقـة ولا تـدل علـى شـيء، فـإذا كـانت، دحّ وإذا كـانت: كـخ كـخ مـن لغـة مخاطبـة الصبيـان فـإن الخربشـة مـن عمـل هـؤلاء الصبيـان.

ومـا علينـا بعـد هـذا إذا عرضنـا لبعـض الملابـس. مـن الألفـاظ الشـائعة فـي لغـة العامـة: الشاشـية. إنهـم يريـدون بهـا خرقـة يغطـون بهـا إبريقـاً أو كأسـاً أو شـيئاً آخـر، أو يريـدون بهـا مـا يلـف علـى الـرأس، فالمـادة شـائعة كثيـراً فـي لغـة العامـة وهـي مـن بقايـا الفصـاح وحسـبنا أن نجدهـا فـي شـعر

البحتري، في هجائه الحارثي:

مرَّ بنا الدامر يختال في شاشية شوهاء مغبرّة

فلا شك في أن الشاشية في هذا المقام ضرب من الملابس، وقد تكون من النوع الذي يلفونه على الرأس، وكيف كان الأمر فالمادّة فصيحة.

وأخيراً فلنبحث عن تصرّف العامة في معاني بعض الألفاظ الفصيحة. نجد في اللغة أن معنى: سنح لي رأي: عرض، إلا أن العامة تخطت هذا المعنى في مخاطبتها وخلقت لهذه اللفظة معنى آخر، فإذا أسرف أحد في المطالبة بشيء أو إذا أفحش في بعض كلامه أو إذا جاوز الحدّ في أمر من الأمور قالوا: اسنحوه أي لا تبالوا به، أهملوه، فالمعنى العامي اختلف كثيراً عن المعنى الفصيح؛ وهكذا تجد أن العامة تستعمل حريتها في التصرف في معاني الألفاظ الفصيحة.

أفلا نرى أن لغة العامة تقرب كل يوم من اللغة الفصحى باستعمالها بقايا الفصاح التي لصقت بأذهانها من سنين طويلة أو باطلاعها على ما تمرُّ به من الألفاظ الفصيحة في الصحف ودور الإذاعة، وأن من الواجب أن نعمل على الزيادة في إصلاح لغة العامة بالأساليب المختلفة حتى يأتي اليوم الذي تكون فيه المسافة بين اللغتين، الفصحى والعامة، قريبة جداً. وعلى هذا الشكل لا نفسد هذه اللغة الشريفة التي أورثتنا إياها أحقاب بعيدة وصقلت هذا الميراث الكريم عصور مديدة.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق١٩٧٥

بقايا الفصام

من طرائف الأمور أن تعيش في لغة العامّة لفظة وهي غاية في الغرابة، وأن تموت هذه اللفظة الغريبة في لغة الخاصّة أي في لغة الأدب، فإن لفظة: فلان مبرطم تستفيض في أحاديثنا ونكاد لا نرى لها أثراً في كتابات هذا العصر. ماذا تريد العامة بقولها: فلان مبرطم؟. فالمبرطم العابس، المنقبض، الغضبان، إذا حيّاه أحد فلا يردّ عليه التحيّة. أفرأينا خصب معاني هذه المادة في لغتنا؟ فلنبحث الآن عن بعض معانيها في معجم الفيروزآبادي.

يقول صاحب القاموس المحيط: «البرطمة الانتفاخ غضباً، وتبرطم تغضب من كلام، وبرطمه غاظه». أفلا نرى تشابهاً بين معنى هذه المادّة في اللغتين الفصحى والعامّة؟ ولكنها في لغة العامة أخصب دلالة وأفسح آفاقاً، ولا أبالغ إذا قلت: إن هذه المادة في لغة العامّة لا تكاد تقوم مقامها مادة أخرى في الدلالة على معناها في مصطلحات العامّة، ولكن من الذي يستعملها في كتابته إذا كان كاتباً، أو في شعره إذا كان شاعراً وإذا استعملها أحد فلا ينجو من ناقد يرميه بالميل إلى استعمال الغريب الذي يحتاج إلى شرح وتفسير، وقد تكون لفظة المبرطم شائعة في دمشق مثلاً ولا تكون شائعة في بلد آخر من بلاد العرب، ففي كل بلد مصطلحات خاصة للعامة في لغتها يفهمها أهل البلد ولا يفهمها أهل بلد آخر.

وقد وردت لفظة المبرطم في أبيات رواها صاحب الحماسة البصرية ونقلها الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه «الحياة الجنسية عند العرب»:

مبرطماً برطمة الغضبان

من هذا كله نستنبط أن مادة البرطمة تنطوي على الغضب وما يصحب هذا الغضب من عبوس وانقباض وتجهّم وما شابه ذلك.

وإذا انتقلنا من الألفاظ الدالّة على ظواهر النفس كالغضب مثلاً فقد نستطع أن نمرّ بألفاظ تدل على الملابس. ونحن نعلم أن الملابس قد تتغير من عصر إلى عصر، ففي الأيام التي نعيش فيها ملابس لم يعرفوها في الماضي ولذلك لا نعلم لها أسماء في لغتنا لأن الأسماء توضع عادة لمسمَّيات معروفة، وفي الأيام التي عاشوا فيها في الماضي ملابس لا نعرفها في الحاضر، وقد تبهم علينا أسماء بعضها وإن كنا نجد لها تفسيراً في كتب اللغة.

من الألفاظ الشائعة في لغة العامة لفظة: الشاشيَّة، فقد يحتاج أحدنا إلى تغطية إبريق ماء بغطاء خفيف أو شيء آخر من بعض المآكل أو قد يحتاج إلى أن يضع على رأسه مثل هذا الغطاء بعد أن يبلله بالماء أو بالخل، والأمثال في ذلك كثيرة . والخلاصة قد يحتاج أحدنا إلى ما نسميه: الشاشية، وكلنا يعرف ما هي الشاشية، ولكن قد لا يجوز أنَّا لا نعرف أن هذه المادة فصيحة، فقد وردت في شعر البحتري في هجائه الحارثي:

يا من رأى الدامر يختال في شاشيَّةٍ شوهاء مغبرّة

وإذا تركنا الملابس وجئنا إلى المآكل عثرنا على ألفاظ تعيش في بعض القرى، ففي القرية التي أعيش فيها تنانير يخبزون فيها الخبز،

وإن كانت هذه التنانير أخذت تقل يوماً بعد يوم، وأخذ أهل القرية يشترون خبزهم من الأفران وشتان ما جودة خبز التنانير وجودة خبز الأفران، فمن خبز أهل القرية ما يسمونه: الفرنية، وهي لجودتها تؤكل بعد خروجها من التنور بلا أدم. وقد وجدت هذه اللفظة في بعض كتب الأدب القديمة ولكنني آسف على أنني لم أدوّن في دفتري مكانها، على أنا نجد في القاموس الميحط: «الفرن بالضم: المخبز يخبز فيه الفرني، لخبز غليظ مستدير». وقد استعملت هذه اللفظة على المجاز، فالفرني أيضاً الرجل الغليظ.

أفرأينا كيف تعيش في لغة العامّة طائفة من الألفاظ الدالة على المآكل وهي فصيحة مثل الفرنية، وكيف تموت في لغتنا ألفاظ قديمة تدلّ على المآكل ونحن لا نعرفها على حقيقتها مثل اللوزينج وهي معرّبة.

وإذا فرغنا من المآكل والملابس فلننتقل إلى لغة العيون.

من أقوال العامّة: فلان عينه تغزل، وهم يريدون بذلك على ما أعتقد كثرة حركتها وقلة استقرارها. فالعين التي تغزل هي العين الحائرة التي وصفها المتنبي في قوله:

أدرن عيوناً حائرات كأنّها مركبّة أحداقها فوق زئبق

وقد جاءت هذه المادة في شعر البحتري في هجائه لابن المغيرة:

ما لعينيك تغزلان إذا ما رأتا في الرؤوس رأساً صليعاً

ولم أهتد إلى الصلة بين المعنيين: الفصيح والعامي، فلم أجد في اللغة غزل بمعنى حار أو تحرّك أو ما ماثل ذلك، وإنما الغزالة: الشمس لأنها تمدّ حبالاً كأنها تغزل. ومغازلة النساء محادثتهنّ والاسم الغزل، فهل من صلة مجازية بين هذا الغزل وبين العين التي تغزل، ولا ريب في

أن للعين شأناً كبيراً في مغازلة النساء، وعلى كل حال فلنترك اللغة تعلل هذا الأمر.

وما دمنا نشير إلى العين التي تغزل فلا نرى بأساً بالإشارة إلى العين التي تبصبص. فهذه المادة: بصبص، شائعة في لغة العامة، وقد يجعلون لها معنى خاصاً فإذا قالوا: فلان يبصبص فكأنهم يريدون بذلك أنه يسترق النظر إلى شيء، إمّا إلى مجتمع نساء وإما إلى غير ذلك، ولا يبعد معنى هذه المادة العامي عن المعنى الفصيح في اللغة، فالبصّاصة العين لأنها تبصّ ومعنى بصّ بصيصاً برق ولمع. ومن معاني بصبص يقال: بصبص الجرو فتح عينيه والكلب حرّك ذنبه.

وقد جاءت هذه المادة في شعر البحتري في بعض قصائده في مدح المهتدي بالله.

وبَصبَص أهل العيْث حين هداهم أخو سطواتٍ ما يبل سليمُها

والخلاصة أن بصبص العامية أصلها فصيح والمعنيان الفصيح والعامي متشابهان أو متقاربان، وفي بعض بلاد العرب كفلسطين ومصر يقولون:

بصّ بالأمر أي انظر.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق ١٩٧٦

بقايا الفصام

تستفيض في لغة العامّة ألفاظ وتراكيب لا يخطر ببال واحد منّا أنها فصيحة وأنها استعملت في الحديث على نحو استعمالها في القديم، من هذا القبيل قول العامة: كأنه عطسه، أو ما يقرب من هذا القول، أي كأنه جاء به شبيهاً له في كل شيء، خلقه وعادته ومزاجه ونحو ذلك، وفي اللغة: فلان عطسة فلان أي يشبهه خَلْقاً وخُلُقاً فالقولان متشابهان، إلاّ أن العامة عدَّت فعل عطس وهو لازم: عطس يعطِس ويعطُس عطساً وعطاساً أتته العطسة.

وقد يتفق في بعض الأحايين أن العامّة تستعمل لفظاً من الألفاظ فصيحاً ولكنه لم يرد على ألسنتها وروده في أصله وإنما تجوّزت بعض التجوز إذا وقع قتال بين الناس ونشأت عنه ضوضاء وغير ذلك عبَّرت العامّة عن هذا الأمر بقولها: حميت الطوشة، فالطوش في اللغة خفّة العقل أفلا نجد أن الطوشة العامية هي قريبة من لفظة الطوش الفصيحة فلا بدَّ في القتال من شيء من خفة العقل وما يشبه، وقد تفرح العامّة في بعض الأوقات بهذه الطوشة فتدعو ربَّها أن: «تحمى الطوشة لتلعب بالبرطوشة»، وما ذكرت هذا الاصطلاح الأخير إلا للإشارة إلى البرطوشة، فلم أجد في اللغة هذه اللفظة، وإنما وجدت ما هو قريب منها في تركيبه، ففي اللغة: المبرطش الدلال أو الساعي بين البائع والمشتري وكان عمر رضي الله عنه في الجاهلية مبرطشاً. أو بالسين المهملة،

فالذي يهمنا من هذا كله أن كلمة البرطوشة العامية وإن لم يكن لها أصل فصيح إلا أن تركيبها قريب من المبرطش الفصيحة.

والغريب في بقايا الفصاح أنَّا نمرّ بألفاظ نظنها في فاتحة الأمر أعجمية ثم يتبين لنا بعد التدقيق أنها عربية فصيحة وإن كنّا لا نجد تقارباً بين المعنيين الفصيح والعامي: يجلس أحدنا في مقهى من المقاهي فيشرب القهوة أو الشاي فإذا فرغ من الشرب وضع الكأس إلى جنبه، فيسمع صوتاً من صاحب المقهى أو من أحد الخدمة: خذ البوش أو ارفع البوش أي خذ الكأس الفارغة أو الفنجان الفارغ: ومن منّا يظن أن هذه لفظة عربية فصيحة وإن كان معناها العامي يختلف عن معناها الفصيح، فالبوش في اللغة لها معان كثيرة، من جملتها: الجماعة المختلطة أو الكثرة من الناس وغير ذلك، ولكني لم أجد لأحد هذه المعاني صلة بكلمة البوش المستعملة في المقاهي، وكل ما نستطيع أن نقوله إن البوش الفصيحة لا صلة لها بالبوش العامّية وقد توسَّعت العامّة في معاني هذه اللفظة. فإذا أقدم فلان على مشروع ولم ينجح فيه أو إذا أخفق في أمر من الأمور عبَّرت العامة عن هذا كله بقولها شغله بوش.

ومن مثل هذا التصرف في المعاني التي تطلقها العامّة على بعض الألفاظ الفصيحة فتحوّل المعنى العامي دون أن يكون صلة بين المعنيين قولها: فلان طفش، وهي تريد بذلك أنه ذهب على وجهه إمَّا أن يكون منقبض الصدر وإمَّا أن يكون قد أخفق في بعض الأمور أو إذا أزعجه شيء فلا تسعه الأرض فيطفش، أي يذهب على وجهه. ولكن ماذا نجد في اللغة، إنّا نجد من معاني الطفش: القذر والنكاح فما الذي يربط بين المعنيين، المعنى الفصيح والمعنى العامي؟.

ولا يبعد عن مثل هذا التصرف استعمال العامّة لفعل حاص ولاص،

فإذا وقع رجل في حيرة من أمره أو مال إلى حيلةٍ وهو يفكر في شيء وأخذ يجيء ويذهب ولا يدري ماذا يفعل قالوا فيه: حاص، لاص كأنه يريد أن يقدم على أمرٍ فلا يقدر عليه، والعامة تستعمل الفعلين دون حرف العطف، وقد يستعملون فعل: لاص وحده أو حاص وحده وهم يريدون بذلك أنه حيران فلا يعلم ماذا يفعل، وفي اللغة: حاص عنه يحيص عدل وحاد ولاص يليص حاد، فما هو التقارب في هذين الاستعمالين بين المعنى العامي والمعنى+ الفصيح، وكما تستعمل العامة في بعض لغتها ألفاظاً فصيحة سواء أتقارب المعنيان الفصيح والعامي أم تباعدا، فإنها قد تستعمل تراكيب على سبيل المجاز، فإذا أراد أحد الناس أن ينجو من رجل طويل اللسان يقع في الناس ويذمهم قالوا له: اقطع لسانه أي أسكته بالإحسان إليه وفي اللغة: قطع لسانه أي أسكته بإحسانه إليه، فالقولان الفصيح والعامي متماثلان لا فرق بينهما، فالعامّة كما استعملت هذا التركيب على حقيقة اقطع لسانه، كذلك استعملته على وجه المجاز.

وقد تخترع العامّة في بعض الأحوال مجازاً فصيحاً لم يستعمل في القديم، من هذا الشكل قولها: فلان يلحقنا على الدَّعسة أي يتعقبنا في كل أمرٍ من أمورنا، يتعقبنا في أخلاقنا وعاداتنا وطباعنا ليكشف عن كل عيب من عيوبنا إذا كان لنا عيب، فالدعسة : شدَّة الوطء والأثر والطعن، أفلا نجد أن هذا المجاز العامي لا يخلو من طرافة .

ما أكثر ما نهتدي إليه من الطرائف في لغة العامة!.

بقايا الفصام

من الألفاظ المستفيضة في لغة العامّة ما يدلّ على حالة من حالات العصر الذي استفاضت فيه، من هذا القبيل: لفظة التشليح، فقد جاء في معجم الفيروزآبادي: التشليح التعرية، وهي سودانية، أي من لغة أهل السواد. وجاء في مقام آخر: يوم غواس كسحاب فيه هزيمة وتشليح. إن هذه اللفظة تدل على حالة من حالات العصر الذي شاعت فيه فكثيراً ما استعملت في بلاد الشام، فقد يحدث أن تاجراً من التجّار كان في طريقه في بادية من بوادي الشام فيخرج عليه جماعة من أهل البدو فيشلحونه أي ينهبون كل ما معه من مال وغيره، أو أن رجلاً كان يسير في طريق من الطرق الخالية في الحضر فيتعرض له من يشلحه. وليس من الضروري أن يكون المشلحون رجالاً فقد توسعوا في معنى هذه المادّة؛ فإذا استولت امرأة على قلب رجل غني واستصفت كل ما يملك فيقولون شلحته، إلا أن هذه المادة قد قل استعمالها في أيّامنا أي قد خفّ التشليح في البوادي أو في بعض الطرق الخالية، وإن قام مقامه شيء آخر مثل القتل والإرهاب ونحوهما، فالمهم من كل هذا أن لفظة التشليح ما زالت مستعملة وإن قلّ استعمالها وهي فصيحة أي جاء ذكرها في بعض المعجمات، وإن كانت سودانية، وما أظن أن لفظة ثانية تعدلها في القوّة، وإن كان في اللغة ألفاظ كثيرة تدل على معناها مثل السلب والنهب وما شابه ذلك ولكن لمادة التشليح قوّة خاصّة لرسوخها في لغة العامّة

ولجريانها على الألسن أكثر من غيرها. وقد تستعملها العامّة في معناها الحقيقي فهي تستعملها في معنى التعرية أيضاً، فأيّ حرج في استعمال المواد التي تستعملها العامّة إن كانت فصيحة أو مدوّنة في معجمات اللغة فإن في مثل هذا الاستعمال ما يقرب بين لغة الخاصة ولغة العامة أي ما يعين على استعمال اللغة الفصيحة في أحاديث الناس.

ولننتقل الآن إلى لفظة ثانية، إلى المأكل والموائد والولائم، فقد يحدث في وليمة من الولائم أو على مائدة من الموائد أن رجلاً أكل كثيراً وأفرط في الأكل حتى تعبت معدته من كثرة الأكل أو مرض فتقول العامة في مثل هذه الحالة إن فلاناً أكل وتبوّع في الأكل، وهم يريدون بذلك أنه أكل كثيراً حتى أتخمه الطعام. ماذا نجد في اللغة، نجد أن البوع مدّ الباع بالشيء كالتبوّع وأن النعجة تسمّى: أبواع معرفة لتبوعها في المشي و ما يدرك تبوّعه أي شأوه. لا نجد توافقاً كبيراً بين لغة العامّة واللغة الفصيحة في هذه المادّة: التبوع، ولكن العامة لها مذاهبها في المجاز فإذا كان من معاني التبوع مدّ الباع بالمشي فما الذي يمنع العامّة عن أن تنقل هذه المادّة من الحقيقة إلى المجاز فتعني بالتبوّع مدّ الباع إلى الأكل والإكثار منه، وكيف كان الأمر فإن مادّة التبوع الدارجة في لغة العامّة إنما هي فصيحة.

وإذا فرغنا من الولائم والموائد فلنستمع إلى مخاطبة الناس، فكثيراً ما يصاب المرء في كلامه بشيء من الحصر أو العيّ في الكلام فيقال في مثل هذه الحالة: تعتع في الكلام أي تردّد من حصر أو عيّ والتعتع الفأفاء. إن العامة تستعمل هذه المادة الفصيحة في كلامها وتريد بها ما دلت عليه اللغة الفصيحة، غير أنها تتبسط في بعض الحالات في معانيها فليس من الضروري أن يتعتع الرجل في كلامه أي أن يتردّد

من حصر أو عي فقد يتعتع الخطيب في خطبته إذا كان لا يستوعب أو قد يتعتع الرجل في حديثه إذا كان غير ملمّ بجوانبه.

فلنشهد الآن مجالاً من مجالات العامّة يتسع فيها مذهبها في المجاز. إنّا نجد في اللغة: أبز الظبي وثب أو تطلق في عدوه، لا شك في أن العامّة إذا استعملت هذه المادّة في لغتها فقالت: أبز فلان فإنها لا تكتفي بالدلالة على وثبه وتطلّقه في العدو ولكنها تريد بها وضعاً من الأوضاع، فقد يحدث في مجلس من المجالس أن أحد رجال هذا المجلس يشرح أمراً من الأمور أو يفصّل قضية من القضايا وهو متمكن من موضوعه، يتكلم بشيء من الرصانة وفي كلامه ما يدلّ على الفهم، فيتعرض له في مثل هذه الحال رجل آخر ليس من وزنه إمّا حباً للظهور أو ميلاً إلى التعكير، فيتكلم وكلامه بعيد عن الصواب فيخلط في كلامه فيقولون في مثل هذا الوضع: وبينما فلان يتكلم أبز فلان، فهم لا يريدون مجرد الرثب وإنما يريدون مع هذا الوثب شيئاً آخر، إنهم يريدون الدلالة على سخفه، فكأنه قال مالا يجوز أن يقال أو كأنه قال مالا معنى له أو مالا حاجة إليه، فمادة: أبز التي تستعملها العامة في هذا الموضوع لها دلالة قوية، إنها تصور وضعاً من الأوضاع الغريبة أو السخيفة.

ومن الألفاظ التي مالت العامة في استعمالها إلى المجاز لفظة: عاطل يقال في اللغة: عطلت المرأة كفرح وتعطلت إذا لم يكن عليها حلي فهي عاطل، ولا نريد التوسع في معاني هذه المادة وإنما نكتفي بأن نقول: تعطل الرجل، بقي بلا عمل، ولكن الذي يهمنا إنما هو المعنى الأول: المرأة العاطل. أظن أن العامة لا تعرف أن المرأة العاطل هي التي ليس عليها حلي ولكنها استعملت هذه المادة في أقبح المعاني فقد نقلتها إلى

المجاز وأعطتها قوة قبيحة، فقد نسمعها في أحاديثها تقول: فلان عاطل، فهي لا تريد بذلك أنه لا عمل له أو أن المرأة لا حلي عليها، وإنما نجرّد الرجل بقولها هذا من كل فضيلة وخلق. على أن هذه المادة قد وردت في شعر الشريف الرضي «أنا عاطل منها وأنت مطوق» أي عاطل من الخلافة، ولكن شتان ما تريده العامّة وما يريده الشريف الرضي باستعمال لفظة: عاطل.

وأخيراً أريد أن أختم هذا المقال الوجيز بتعبير لا يزال حياً في أيامنا وله دلالة قوية وقد استعمل في أدبنا القديم فكثيراً ما يأتي ذكر رجل عظيم من رجال السياسة أو الشجاعة أو من أصحاب المقامات فيريدون أن يدلوا على مبلغ قوة هذا الرجل وعظمته فيقولون: فلان ما معه لعبة، أو ما هو قريب من هذا القول أي لا تجري عليه حيلة أو كذبة أو غش أو ما شابه ذلك فهو سليم من جميع الوجوه لا سبيل إلى خداعه أو نحو ذلك، وقد ورد مثل هذا التعبير في أدبنا القديم وإن كان التركيب يختلف، فقد جاء في موطن من مواطن الأغاني: ليس مع السيف لعب، أي إذا جاء ذكر السيف أو عمل السيف بطل كل شيء وكذلك إذا جاء ذكر فلان بطل كل خداع وحيلة.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٨

بقايا الفصاح

قد تلجأ العامّة إلى لفظة فصيحة فتقلب معناها من وجه إلى وجه، وتقبّح هذا الوجه اشدّ تقبيح، من ذلك لفظة: فطس، لا حاجة بنا إلى الإتيان على معاني هذه اللفظة بمجامعها، ولكنّا نقف على معنى واحد منها، يقال: فطس يفطس بكسر عين المضارع أي مات إلا أن العامّة لا تقتصر على الموت وحده ولكنها تجعل لهذا الموت أقبح صورة، فإذا عرف رجل بسوء خلقه أو بشدة أذاه أو بما يقرب من هذا كله ومات هذا الرجل فإنهم لا يقولون: مات وإنما يقولون: فطس، وفي قولهم هذا شيء كثير من الشماتة أو من الفرح أو من أشباه هذه الأمور، فكأنهم يعبِّرون باستعمالهم فعل: فطس عن سلامتهم من شره، أما إذا مات رجل صاحب أخلاق حسنة فإنهم لا يقولون فيه: فطس، وإنما يقولون مات ويطلبون له الرحمة، وقد اشتقوا من لفظة: فطس، لفظة ثانية وهي الفطّيسة بتشديد الطاء: أنف الخنزير أو أنفه وما والاه، غير أن العامة لا تشدّد في هذه اللفظة.

لننتقل الآن إلى مادة ليس فيها شيء من القبح، فمن الألفاظ المستفيضة في لغة العامّة لفظة: الفرجة وهم يريدون بها كلّ مشهدٍ تقرّ به العين وينشرح به الصدر ويدخل السرور على القلب، فلنرجع إلى أصل هذه المادة، نجد في اللغة فرّج الله الغمّ كشفه، والفرجة التقصّي من الهمّ أي التخلص منه، وعلى هذا الوجه نجد أن الفرجة العامية والفرجة الفصيحة متقاربتان وإن كانت الفرجة العامية لم تطلق في القديم على المعنى الواسع الذي أطلقت عليه في أيامنا، وكيف كان الأمر فإن التخلص من الهم إنما هو قرّة العين وانشراح الصدر.

ومن الألفاظ الحيّة في لغة العامّة لفظة: التهريج، ماذا نجد في اللغة؟ يقال: هرج الرجل في الحديث أفاض وأكثر وخلّط فيه، والمرج بفتح الراء الاختلاط والاضطراب وإذا قالوا: الهرج والمرْج سكنوا راء المرج وهذا التسكين أخفّ على الأذن من أن تبقى راء المرج مفتوحة وراء الهرج ساكنة، فالهرج والمرج فصيحتان ومعناهما العامي مطابق لمعناهما الفصيح في القديم، فإذا كان الهرج والمرج يراد بهما كثرة الكلام والتخليط فيه فالعامّة تريد بالتهريج هذا النوع من الكثرة والتخليط، وقد تتوسّع في معنى التهريج فتريد به الكلام الذي لا جدّ فيه ولا صواب رأي، إلا أن التهريج في البعير على نحو ما جاء في اللغة الفصيحة إنما هو حمله على السير في الهاجرة حتى يسدر، أي يتحيّر، من شدّة الحرّ كالأهراج، وزجر السبع والصياح به إلى آخر ما جاء في تفسير هذه اللفظة. وإذا كانت العامّة تطلق على المضحك من الناس والمكثر من الكلام لفظة: المهرّج فاللغة الفصيحة وضعت الهرّاج على وزن شدّاد لما يقرب ممّا تقصده العامّة، والهراجة الجماعة يهرجون في الحديث.

قد يشيع على ألسن العامّة في بعض الأوقات ألفاظ لها معنى يختلف عن المعنى الذي جاء في اللغة الفصيحة، ولست أدري هل من السهل تعليل هذا الأمر، من ذلك مثلاً قول العامّة: ندفش أيامنا تدفيشاً، وهم على ما يظهر يريدون بذلك أنهم يقضون أيامهم دون شيء من اللذّة والسرور، ماذا نجد في اللغة، نجد أن الدفشة بالفتح دويبة رقطاء أصغر من القطاة أو طائر أرقش، والدفش كالنفش، والنفش إنما هو تشعيث الشيء بأصابعك حتى ينتشر، كالتنفيش، ولها معان ثانية لا حاجة بنا إلى ذكرها في هذا المقام، فإذا كان معنى الدفش مثل معنى النفش أي تشعيث الشيء بالأصابع حتى ينتشر فهل يجوز لنا أن نتوسّع في التعليل عن سبيل المجاوز، فإذا قلنا: ندفش أيامنا تدفيشاً حتى تمر فكأنّا نشعث الأشياء بأصابعنا حتى تنتشر، وفي كل حال هذا رأي لا أقطع به

ولكنّا نستطيع أن نقول: إن الدفش فصيحة وإن لم يكن لها في لغة العامّة المعنى الذي جاء في اللغة الفصيحة.

وقد نجد في لغة العامّة في كثير من الأحوال ألفاظاً فصيحة في أصلها ولكن العامّة جعلت لها معنى يختلف عن معناها الفصيح القديم، ومهما نتوسع في التعليل فقد يصعب علينا في بعض الحالات الاهتداء إلى السبب في هذا الاختلاف، فمن أقوال العامّة: اسمع وسطّح، بتشديد الطاء. وهم يريدون بذلك إذا سمعت حديثاً لا يعجبك أو فيه شيء من البعد عن الصواب أو ما شابه ذلك فلا تبال بهذا الحديث فاطرحه وأهمله ولا تشغل به فكرك، فإذا رجعنا إلى مادة السطح في اللغة فإنا نجد أن السطح إنما هو ظهر البيت وأعلى كل شيء ونجد أن: سطحه معناها: بسطة وصرعه، وأضجعه، وسطح سطوحه بالتشديد: سوّاها إلى آخر ما جاء في تفسير هذه المادة، فالذي يهمنا من كل ذلك إنما هو: التسطيح الذي تريده العامة وهو إهمال ما نسمعه من كلام لا يقع منّا موقعاً، فكل ما نستطيع أن نقطع به في هذا الباب أن مادّة التسطيح فصيحة وأن معناها في الحديث يختلف عن معناها في القديم، وإذا أردنا أن نتوسع بعض التوسع في التعليل ونقول: إذا كان تسطيح السطوح إنما هو تسويتها فقد يجوز أن يكون تسطيح الحديث الذي نسمعه إنما هو تسويته أي ردّه إلى الحقيقة، وقد يكون في هذا التوسّع شيء من الغلوّ فلنكتف بقولنا إن لفظة التسطيح إنما هي فصيحة لا غير.

وأخيراً فإن كلام العامّة:فلان كلامه نتر، أي كلامه شديد غليظ، في اللغة: النتر تغليظ الكلام وتشديده.

مجلة مجمع اللغة العربية

بدمشق١٩٧٩